دراسة طوبوغرافية لداخل مدينة حلب في العصر الايوبي

للأستاذ دومينيك سورديل

(تعريب وتلخيص مجلة الحوليات السورية الأثرية)

(خلاصة المقال المنشور في القسم الغربي من المجلة)

أبان المرحوم جان سوفاجه أن مدينة حلب عاصمة إحدى الدول الأيوبية التي كان أول ملوكها غازي ، تمتعت في ذلك الزمن بعهد من أزهى عهودها التاريخية . وقد نشأت فيها أحياء متعددة بعد عهد زنكي وخلفائه داخل سورها وخارجه ، كما نشأت فيها المدارس ودور الحديث والمعاهد التي دلت على الاتجاه الديني للنظام الجديد ، وكذلك اتسعت أسواقها وازدهرت صناعاتها الجديدة التي اتفقت مع حاجاتها الاقتصادية .

وقد أقام التركمان الذين أتى بهم الأتابك في الأحياء الواقعة خارج سور المدينة ، وتحولت الأسواق داخل السور واتسعت ، واتخذت الأشكال التي حافظت عليها مدةً طويلة ، وبقي بعضها الى زماننا هذا . وتمكن حالياً معرفة طوبوغرافية حلب داخل السور في العصر الأيوبي بعد محاولة افتراض وضع منشآتها في الأماكن التي كانت لها ، وذلك بمساعدة تخطيطات المدينة التي لم تتغير كحي باب أنطاكية مثلاً ، وبعض النصوص التاريخية الأخبارية كتاريخ ابن شداد المنقول عن ابن الشحنة ، والذي تكمله نصوص كتاب سبط العجمي .

وقد فضلنا للقيام بهذا العمل اللجوء الى طريقه استعراض أحياء حلب واحداً بعد الآخر .

١ — حي القلعة

يمتد هذا الحي من الباب الصغير وباب العراق جنوباً ، حتى باب الأربعين شمالاً . ويحيط بالقلعة التي كانت مركز الملك . والى جنوب القلعة مدرسة الملك الظاهر غازي أو الظاهرية التي

كانت مقسومة بين الشافعيين والحنفيين ، والى جنوبها الغربي قصر العدل الذي أنشأه نور الدين ، وفي شمالها حمام السلطان . ومن هذه المنشآت التي تجمعت حول القلعة ، المدرسة النورية ، والمدرسة الصاحبية ، والمدرسة القليجية ، والمدرسة السيفية ، والمدرسة العصرونية ، والمدرسة الحسامية ، والمدرسة الأتابكية ، والمدرسة العسلية . ومنها أيضاً رباط ابن شداد والرباط الواقع بالقرب من المدرسة النورية ، ورباط إقبال الظاهري ، ورباط الأميرة ، ورباط ضيفة خاتون . ومنها مدارس الحديث ، كمدرسة الصاحبية ، ومدرسة بدر الدين الأسدي . ومنها أيضاً تربة إسماعيل ، وتربة ابن شداد . ومنها المساجد ، ويصعب عدها بكاملها . ومنها مسجد غازي بالقرب من الباب الصغير ، ومسجد إقبال ومسجدان بالقرب من قصر العدل . ومنها الحمامات وبيوت الأعيان التي ألفت مراكز تجمع حولها كثير من المنشآت .

٢ — الشارع الكبير في باب أنطاكية ، وضواحيه

إن الشارع الكبير لباب أنطاكية الذي يمتد حتى القلعة ماراً بأسواق (البلاط) وطريق الكتّاب هو شارع المدينة الرئيسي ، ومركزها الاقتصادي الذي اجتمعت حوله أسواقها المشهورة . ويلاصق هذا الحي الجامع الكبير ، وقد حوى عدة أوابد دينية ، منها مدارس الشهابية ، والزيدية ، والمقدمية ، والسجاجية ، والحلاوية ، والشرفية ، ومدرسة بني العجمي ، والرواحية ، وغيرها . ومنها رباط ابن المقدم ، ورباط فاطمة خاتون ، ورباط لؤلؤ ، ورباط النساء ، وغيرها . ومنها المساجد كالمسجد الواقع في باب أنطاكية ، ومسجدان في سوق الصباغين ، ومسجدان في سوق الحطابين ، ومسجد الحسبة شرقي المسجد الكبير ، وجامع البلاط ، وخمسة مساجد حول سوق البازيار وسوق الديلم ، ومسجدان في سوق الحدادين ، وجامع الحصارين وغيرها . ومنها أيضاً بيمارستان نور الدين في طريق الصابئي ، ودار الزكاة في جنوب الجامع الكبير . ومنها أيضاً عدة حمامات : حمامان للزجاجين ، وحمام القبة ، وحمام الشريف عز الدين ، وحمام العفيف ، وحماما دار الزكاة ، وحماما السيدة . ومنها عدد من البيوت : منها كبيت الشرف ، وبيت ابن الفاخر ، وبيت شرف الدين بن أبي جرادة ، وبيت بني العجمي . ومنها فندق العيش (أو عائشة) . وكانت هذه الأسواق كثيرةً حول الجامع الكبير ، ويمكن معرفة مواضع بعضها ، ويصعب معرفة مواضع بعضها الآخر .

وكانت توجد أسواق الصباغين ، والتنانيريين ، والحطابين ، والزجاجين ، والحصارين حول باب أنطاكية ، كما أن سوق السراجين كان واقعاً في غربي الجامع الكبير ، وسوق البزازين في

جنوبه الغربي ، وسوق الأساكفة الى جانبه . أما سوق الجرارين وسوق البنائين فلا يعرف موضعها ، ويظن أنهما كانا في هذه المنطقة .

والى شرقيّ المسجد الكبير كانت تقع أسواق النطاعين ، والحريريين ، والنحاسين ، وكان الشماعون بالقرب من دار الزكاة ، والصائغون بالقرب من حمام السيدة ، والحدادون في جنوبي الشارع الكبير ، وكذلك سوق العطارين ، وسوق الكتانيين ، وسوق الخشابين ، وسوق الصناديقيين .

٣ — حي التركمان

قطع التركمان أرضاً حول باب العراق حيث يوجد المرمى (الهدف) الذي كان يتمرن عليه الجنود . ويمتد هذا الحي حتى باب قنسرين . وهو مكان ساحة البزة الحالية . ولم تكن فيه مدارس ، وكان فيه ثلاثة رباطات : رباط مجد الدين ، ورباط بنت سابق الدين عثمان ، ورباط سيف الدين علي . وكان يوجد مقابل هذا الرباط مسجد سابق الدين ، وعدة مساجد أخرى ، وحمامان : حمام حمدان ، وحمام سابق الدين . ويدل وجود رباط مجد الدين — وهو أمير شيزر ومن حاشية صلاح الدين — ومسجده وحمامه ، أنه أقام في هذا المكان ، وهو الذي قام بإعماره .

٤ — الأسفريس وطريق باب قنسرين

ويمتد هذا الحي حول ثلاثة شوارع : في الشمال شارع الأسفريس ، وفي الشرق شارع يصل مستشفى أرغون الحالي وباب قنسرين ، وفي الغرب شارع بين باب قنسرين وبيمارستان نور الدين . وفيه مدرستان : الطومانية والأسدية ، ورباطان : رباط زمرد خاتون ، ورباط الكاملية ، وعددٌ كبير من المساجد منها : جامع العمود ، وجامع المعلق ، وجامع طريق البنات ، وجامع محاسب وغيره ، وعدد من الحمامات ، منها حمام بني الخشاب ، وحمام الوالي ، وعدد من الترب : كتربة بني الخشاب ، وتربة المنتخب بني نصر الله ، وتربة ابن العسقلاني .

٥ — العقبة

وهو حي يقع في غربي المدينة ، ويحده السور من جهاته الثلاث ، والشارع الكبير لباب أنطاكية ، وشارع باب الجنان ، ويتصل شرقاً بالأسواق المحيطة بالجامع الكبير ، وفيه حمام واحد وهو حمام صفي الدين . وعدد كبير من المساجد : منها جامع خاقان ، وجامع صفي الدين ، وجامع

بني أسامة ، وجامع ابن حمزة ، وجامع كمال الدين الاعمى وغيره . وأكبر الظن أن هذا الحي كان حياً مخصصاً للسكن ، ويسكنه بنو المنذر ، وليس لدينا عنهم شيء من المعلومات .

٦ — أقطاع السرلة

ويقع إلى شمالي العقبة على طريق باب الجنان ، ولم يكن فيه شيء من المدارس ولا الرباطات بل بعض الحمامات : منها حماما أبي حسن ، وحمام الهدوء ، وحمامات شحنة في مكان التل ، وعدد كبير من المساجد ، وأشهرها : جامع القصر ، وجامعان في أسفل التل ، وجامع الصابونية وغيرها . وعدد من البيوت : منها بيوت بني المقارمي ، وجامع بني الباشق ، وجامع ابن بزاز الليل ، وجامع ابن السروجي ، وجامع ابن القشام .

وكان يوجد داخل باب الجنان سوق الفواكه ، والمصبنة ، وسوق بائعي السماق ، وسوق الفراءين . وعلى هذا فان هذا الحي كان حياً للسكن ، وللتجارة ، ولبعض الصناعات الخاصة .

٧ — الساحلية

يقع هذا الحي في امتداد الشارع الكبير لباب الجنان ، ويحوي سويقة حاتم . ولم تكن فيه مدارس ، وكان فيه رباط واحد ، وهو رباط الكوكبري أمير أربيل ، وجامعان ، وحمامان ، وبيوت منها بيوت ابن خرخان ، وعز الدين بن المجلا ، وبني الأشتري ، وبني دبوقا . ويحوي عدداً من الأسواق : منها سوق الصباغين ، وسوق الحجارين ، وسوق الطيوريين ، وسوق الدلائين وغيره . وكانت المزبلة تقع بين السويقة والعقبة .

٨ و ٩ — المعقلية والبحصيتا

يقع حي المعقلية في القسم الشمالي من المدينة بين باب الأربعين وباب النصر ، ولم تكن فيه منشآت تامة . وكان يحوي حمام المعقلية ، وحمامي ابن العديم في باب النصر . وبعض المساجد التي منها جامع بالقرب من القسطل وراء باب النصر ، وجامع مقابل حمام محيي الدين بن العديم ، وجامع الشجرة ، وبيت الوزير نظام الدين الطغرائي بالقرب من باب النصر . وكانت توجد سويقة اليهود في شارع باب النصر الكبير . ويمتد إلى شرقها حي اليهود في البحصيتا . وكان هنالك كنيس اليهود الكبير الذي بني في القرن الثالث عشر ملاصقاً لكنيس العصرونية الذي حول فيما بعد الى مدرسة .

وكان يوجد في البحصيتا جامعان ، وحمامان : الأول حمام بني العجمي ، والثاني حمام القصر .

الخلاصة

ونستخلص مما تقدم أن داخل مدينة حلب الأيوبية في القرن الثالث عشر كان يحوي الأسواق والمنشآت التي ذكرناها قبل أن تتسع اتساعاً كبيراً في العصر الحاضر . وكانت المدينة على خلاف ما ستصير إليه فيما بعد على أثر تحول سورها وانتشار أحيائها الخارجية ، مدينة متوسطة من مدن القرون الوسطى الاسلامية ، وتختص بمركزية مخططها ، وبتصنيف أحيائها ، وبمجاوبة منشآتها لحاجاتها الادارية والفكرية والتجارية ، ووقوع هذه المنشآت وسط جزيرات سكنها .

وكان محور المدينة الكبير شارع باب أنطاكية الذي يحاذي الجامع الكبير وينتهي أمام القلعة ، واصلاً بين قطبي حلب . وهما الجامع والمقر الملكي . وقد انتشرت الأسواق المركزية والمدارس حول هذا الشارع . وكذلك الأبنية الرسمية كالحسبة وقصر العدل .

وسكن التركمان في أقطاعهم قرب القلعة ، وأقام النبلاء القدماء في مركز المدينة بين الجامع الكبير والقلعة ، ومنهم بنو العجمي ، وبنو جهيل ، وبنو العديم ، وبنو القيزراني ، وبنو شحنة . كما أقام بنو الخشاب في الجلوم ، وبنو أسامة في العقبة ، وبنو زُهرة في الصالحية . وكانت المدارس والمساجد والترب والرباطات والحمامات تكثر حول بيوت هاته الأسر . وكذلك فان المساجد كانت تكثر في الأسواق وتؤلف عناصر الوحدة في شكل المدينة . ويدل عددها الكبير الذي لا يتناسب مع سعة المدينة على صبغة حلب الاسلامية المعاصرة .

(تعريب وتلخيص مجلة الحوليات السورية الأثرية)

